الفصل الثالث

السيرة وقالب المذكرات والرسائل

المبحث الأول: السيرة وقالب المذكرات

المبحث الثاني: السيرة وقالب الرسائل

المبحث الأول

السيرة وقالب المذكرات

يتطلب دراسة فن المذكرات بعض التوضيح تجنباً للالتباس بينه وبين الذكريات.

وخير توضيح للفرق بين الاثنين هو أن المذكرات سجل للأحداث من وجهة نظر الكاتب، ومن خلال عين إنسان عاش الأحداث التي يصفها، ولكاتبها دور بارز في مجرى الأحداث الدائرة من حوله[1].

أما الذكريات، فتهتم بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات، وهي أقل أشكال السيرة الذاتية من حيث تمثيلها لكاتبها، ومن ثمَّ فإن قيمتها الأدبية أدنى من تلك التي تحظى بها المذكرات[2].

- والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يعي كاتب السيرة الذاتية مطابقة سيرته للخصائص الفنية لأدب المذكرات، وما يجعلها مذكرات لا ذكريات مثلاً؟

**

(١) انظر: السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية وببلوجرافيا، عبدالله الحيدري، النادي الأدبي، جدة، ط١، ١٤٢٩هـ، ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

*****

احتوت مصادر هذه الدراسة على بعض المذكرات، مثل مذكرات الشيخ مصطفى عبد الرازق، حول إقامته بفرنسا للدراسة والتدريس بهـــا، فـــي بواكير القرن الميلادي السابق.

وفي إحدى مذكراته، عندما زار حديقة هايد بارك بلندن، وتجول في أرجائها العامرة بالطبيعة والحيوانات الأليفة وحشود الجماهير، لفت انتباهه ركن الخطباء، فوقف مشاهداً ومستمعاً.

يقول :

"تدخل هايدبارك يوم الأحد، فتجد منابر قد حفّ من حولها الناس، هناك محاضرات في تدبير الصحة، ومحاضرات في نظريات الأطباء في علاج الأمراض، وهنا خطب في بثّ المذاهب الاشتراكية وخطب في الصّد عنها، وثم هندي يبين معايب السياسة الإنجليزية في الهند، وتجد

منابر لدعاة الكاثوليكية، وذلك بروتستانتي يؤيد دين عيسى على ما ذهب إليه "لوثير" و"كالفان"(١) والجماهير تغدو وتروح بين هذه المنابر في سماحة لا يشوبها ضيق العطن، حتى لتمثلنا جواً مع بغداد وهي زاهرة بدروس الدين والعلم والأدب، في حرية لا تحدها حدود، ولا يقف في سبيلها تعصب أو جمود.

ولما رأيت للأديان دعاة في "هايدبارك"، ما عدا دين محمد بن عبدالله، ثارت في نفسي غيرة وحمية، فكدت أصدع بالدعوة إلى الهدى ودين الحق، ثم نبهني ناصح شفيق إلى أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين في مصر، فيخرج لها في لندن من يدعو الكفار إلى الإسلام"(٢).

وتبدو فكرة ركن الخطباء فكرة حضارية راقية، حيث يحتشد من يشاء من الناس أياً كانوا، ويستمعون لكل من لديه رأي يريد إذاعته ونشره، فيجد أكبر مكان عام مفتوحاً ومتاحاً ومُتهيأ له ولأمثاله، ويشرع في الحديث عن فكرته باللغة التي يريد، والناس أحرار في مواقفهم

---

(١) لوثر وكالفن : مارتن لوثر (١٤٨٣- ١٥٤٦) ، جون كالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤) من زعماء الإصلاح الديني المسيحي، ووضع لوثر المذهب البروتستانتي ، وانشق لوثر على الكنيسة الكاثوليكية ، ويسمى مذهبه باللوثرية.
كالفن : نادى بما نادى به سابقة لوثر، وعمل على الإصلاح الداخلي للكنيسة
انظر : الموسوعة الحرة ويكيبديا + موقع روز اليوسف
(٢) مذكرات مسافر ٦١،٦٢.

بالتأييد والتشجيع، أو الشجب والاعتراض الهادئ، أو حتى بالانصراف عنه.

وهذه الفكرة تركز على أهمية استماع الآخر والتحاور معه والنقاش إن لزم الأمر بصورة حضارية، تُفسح المجال للعقل والعاطفة للانفتاح على الآخر بأسلوب سلس، وكل هذا يصب ضمن محور التفاهم والتعايش السلمي بين الناس، أما موقف الشيخ عبد الرازق المتروي أو المتردد باتخاذ قرار المبادرة إلى توضيح مفهوم الإسلام والدعوة له، ثم الإحجام عن هذه المبادرة لبعض الدواعي السياسية والإدارية، فيبدو لي أن الشيخ عبد الرازق في هذا الموقف غابت عنه الحكمة والرشاد، والشيخ مصطفى في رحلته هذه التي دامت قرابة خمس سنوات (١٩٠٩-١٩١٤م)، لم يذكر فيها ما ينم عن غيرة دينية أو وازع ديني متين لديه، مما يُؤسف له، فالتمكن من اللغة الفرنسية ليس بالأمر الهين اليسير- لأزهري نشأ بين جدران الأزهر البعيدة في ذلك العهد عن أساليب التعليم المدني المتطورة - وكان الأجدى والأجدر به كشيخ أزهري قارئ وحافظ لكتاب الله العزيز أن يستعمل هذه الملكة والموهبة والقدرة للدعوة لدين الله القويم، متى ما سنحت له الفرصة من دون الإخلال بواجباته الأصلية في تدريس أصول الشريعة الإسلامية واللغة العربية، بكلية ليون في فرنسا.

وقد عرضت المقالة بأسلوب تقريري هادئ من هدوء كاتبها نفسه في شتى موضوعات مذكراته هذه، وجاء الاستدعاء عبر مدينة بغداد العاصمة العباسية بمدارسها الزاخرة بألوان الفكر والمعرفة والرأي الحر.

وقد عكس تركيز انتباه الكاتب بركن الخطباء احتفاءه بالاستماع والإنصات لأفكار الآخرين وآرائهم، ففي حديقة كهذه الحديقة _ والتي كانت فيما مضى قِصراً على العائلة الملكية والطبقة النبيلة_ فيها من المتع والجماليات البصرية أكثر بكثير مما لفت انتباه الكاتب لركن الخطباء. ولكن يبدو أن المشهد برمته كان جديداً عليه. فاجتماع عشرات المستمعين حول بعض الخطباء، عاد به في غضون دقائق إلى قرونٍ مضت، لحضارة سادت ثم بادت، إنها حضارته الأم، الحضارة الإسلامية في أوج مجدها وإشعاعها.

- وفي مثال آخر كتب أحمد أمين بضعة مذكرات في سيرته بموضعين من السيرة، أولاهما عندما عمل قاضياً في الواحات الخارجية من نواحي الصعيد، حيث قضى في هذه الرحلة الداخلية ثلاثة شهور سطّر فيها بعض مذكراته في أثناء عمله هذا، و بعض مشاهداته لبلاد الصعيد و أهلها.

والموضع الآخر لمذكراته كان في أواخر سيرته قبيل نهايتها، عندما أُتيحت له فرصة زيارة تركيا بعد سنوات قليلة من قيام الجمهورية التركية الحديثة

وإلغاء الخلافة الإسلامية، فكتب مذكراته لهذه الرحلة المميزة، وتحدث فيها مع بعض المثقفين الأتراك ممن عايشوا ذلك الانقلاب الخطير، كيف بدأ وإلى ما صار، وعرض آراءهم الشخصية في تركيا الحديثة. وقد اكتسب أحمد أمين خلال رحلته هذه التي دامت أربعين يوماً بعض الخبرات و المعارف، و الطريف أن أغلبها خبرات ومعارف عن شخصيته هو، فكأنَّما كانت هذه الرحلة مجالاً و فرصة رأى فيها نفسه من خلال منظور مختلف.

يقول ضمن هذه المذكرات الختامية لرحلته:

"وقد أفادتني هذه الرحلة اتساعاً في أفقي، فأصبحت أنظر إلى مصر وحوادثها وشؤونها من علِ، كأنني في طيارة، وغلبتني في الأستانة العاطفة الدينية، لا من ناحية كثرة الصلاة، ولكن من ناحية الشعور القلبي.

أحسست عند مقارنتي لرفقائي في السفر أنني أكثرهم تحفظاً و أقلهم مرحاً وأشدهم حنيناً إلى أهلي و وطني، و اعتزمت أن أنصف أهلي وولدي فأكون معهم ألطف و أعطف و أرق و أحسن معاملة و أكثر مرحاً.

فكرت أن أبحث عند عودتي مشروعاً مفيداً، و هو إنشاء مطبعة أنشر فيها خير الكتب القيمة التي عثرت عليها في الأستانة، فيكون عملاً مربحاً مادياً وأدبياً.

قلت في نفسي: إن الأربعين يوماً التي قضيتها في الأستانة موضوع لرواية جيدة، بل روايات، ففيها المناظر، و فيها الأشخاص، و فيها الأحداث، و لا ينقصها شيء إلا المرأة و التحرير الروائي.

لاحظت كثرة الشيب في رأسي، فبدأ شعوري بكبر سني، وزاد هذا الشعور ما كان يبدو على بعض الشبان من تقديمي أمامهم في السير وإخلاء أماكنهم ليجلسوني، وكان كل هذا إكراماً لاذعاً"[١]

ولا شك بأن الإنسان قد يحتاج في بعض الأحيان للمغادرة، فيكون الارتحال للوجهة الأخرى حاجة صحية و ثقافية في آن معاً، فيرتحل لمكان مغاير لبيئته فترة من الزمن، ليعود بعدها موفور النشاط عميق الإدراك واسع الأفق. وقد أدرك الكاتب من خلال معايشته بعض زملاء و رفقاء الرحلة جوانب و أبعاداً من شخصيته، ما كانت لتتضح له ربما لولا هذه الرفقة و هذه السفرة[٢].

---

(١) حياتي، ٢٢٠.

(٢) وأنا هنا أختلف مع رؤية عباس محمود العقاد، و التي لا يرى فيها السفر إلى الخارج حاجة ضرورية لاتساع أفق الرؤية و شموليتها على نحو أكثر دقة و موضوعية. وفي مقال للعقاد بعنوان (طفت العالم من مكاني) أوضح فيه وجهة نظره هذه، مكتفياً بقراءاته عن العالم الخارجي عن الغرب، أدبائه و طبيعة أهله و سائر شؤون مجتمعاتهم. و هذا بلا شك نقص في أدوات كاتب يريد حيازة قصبة السبق في مضمار الكتابة المحلية و العالمية كما فعل العقاد في سلسلة مؤلفاته.

انظر مقالته هذه في :

أنا ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٦هـ ، ١٧٦.

وهو تأمل مفيد في حالة الكاتب، و أكبر الظن عندي بأن نشأة أحمد أمين و تربيته الحازمة، أدَّت إلى جديته المفرطة[1] وتجهمه الظاهر.

هذا عن الملحوظة الأولى. و ليست الملحوظات الأخرى بأقل فائدة منها. و كُتبت المذكرات في عبارات مقتضبة، وساعده بلا شك رجوعه عن طريق البحر لا عن طريق الجو، فقد كتبها على ظهر سفينة تسمى سفينة الروضة، و كتب هذه الملحوظات الختامية لمذكراته بتاريخ السادس عشر من شهر يوليو،لعام ١٩٢٨م.

وتحدث فيها عن الطقس واختلافه ما بين مصر و تركيا، و عن أفكاره و مشاعره الخاصة.

وكان لانتقال المذكرات من موضوع لآخر – في ملحوظات متعددة – باعث إحساسه الشخصي بمدى توسع رؤيته الخاصة من خلال هذه الرحلة. وهي مكاسب قيَمة وضرورية في حالة أحمد أمين.

---

(١) و قد كان أحمد أمين شخصية جادة بالفعل، وذكر أن من لوازم عمله في القضاء التخلق بسمت القضاة في جدهم و وقارهم و بعدهم عن كل ما يخل بهذا السمت الرصين. واعتاد على جديته واتزانه الصارم حتى بعد تركه القضاء إلى التدريس في الجامعة. وكان من أوائل الذين أشاروا عليه بضرورة تبسطه و ابتهاجه بشبابه أستاذته الإنجليزية التي درسته اللغة الإنجليزية. انظر : حياتي ، ١٥٤.

المبحث الثاني

السيرة وقالب الرسائل

فن الرسائل له من المعرفة والشيوع والتداول ما يغنيه عن التعريف به.

وهو فن متقادم منذ العصر الجاهلي إلى عصرنا الحاضر، في تراثنا وسائر آداب وتراث الأمم الأخرى، لدى أهل السياسة، كما لدى أهل الفن والأدب.

والرسالة وسيلة من وسائل الاتصال الشخصي بين اثنين.

ومن أشهر الرسائل الدعوية رسائل رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى ملوك وزعماء الأرض من عربي وعجمي يعرض عليهم الدخول في الإسلام، وقد قام بجمع هذه الرسائل محمد بن حديدة الأنصاري، في كتابه (المصباح المضيء) [1].

والجدير بالذكر أن الأدب العربي الحديث حظي بنخبة مميزة من أدب الرسائل –على قلتها– مثل رسائل الأديب السعودي حمزة شحاتة المرسلة إلى ابنته شيرين.

---

(١) انظر: المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، محمد بن حديدة الأنصاري (ت٧٨٣هـ). دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

ورسائل الأديبة اللبنانية الآنسة مي زيادة.

ورسائل الشاعر العراقي بدر شاكر السياب.

ورسائل مصطفى صادق الرافعي الأديب المصري الغني عن التعريف.

وقد ضمّ كتاب **ذكريات باريس** لزكي مبارك مجموعة من الرسائل والمذكرات المصورة لمدينة باريس في مرحلة مبكرة من القرن الماضي ما بين عامي (١٩٢٧-١٩٣١م) وتضمّن الكتاب مجموعة من رسائل مبارك لبعض أصدقائه بمصر، متحدثاً فيها عن شؤون الحياة بفرنسا وطبائع الفرنسيين.

ولغة الرسائل لغة أدبية رفيعة، شأن زكي مبارك فيما يكتب ويعالج من موضوعات المجتمع والأدب والفن، يبدو فيها في شعور الكاتب واضحاً بيّناً، فكأنه يجد ملاذه وسلواه فيما يكتب وإلى من يخاطب.

في إحدى رسائله الموجهة لصديق يُدعى أحمد الزين، وكان زكي مبارك قد ذهب لمقهى عربي خاص بجامع باريس وهو محل ملحق مجاور للجامع، فرجع زكي مبارك بذاكرته إلى مقاهي القاهرة، وخاصة مقهى حي الحلمية ومقهى حي الحسين وما تشيعان في أعماقه من مشاعر الدعة والصفاء وهناءة البال. وهو يحدث صاحبه في هذه الرسالة عن الفوارق بين مقاهي القاهرة وهذا المقهى الباريسي وطابعه الشرقي عبر

اللوحات المعلقة على جدرانه للمناظر العربية والإسلامية، وعبر استقدامه للمغنين والمنشدين العرب من تونس والإسكندرية وبغداد لإنشاد المواويل الشجية والطرب الأصيل.

وإذا كانت مقاهي القاهرة شهيرة بقهوتها الداكنة، فإن قهوة الجامع لا تكتفي بتقديم القهوة اللذيذة فقط، بل تجمع بين لذة الشراب البريء وغير البريء، ومتعة النظر والسماع في استماع أغاني المنشدين والمغنين، ومتعة النظر لمرتادات المقهى من ذوات الجنسيات المختلفة، ألمانيات ونمساويات وأمريكيات، حتى طغت سمعة مقهى الجامع، وهكذا يسمونه في باريس، فهو مقر ذائع الصيت لسماع الأغاني الشرقية الطربية، والمشروبات المنعشة ما بين القهوة،و الشاي، والنبيذ. والشابات الغربيات المتنقلات في نواحي المقهى بغية صيد ثمين.

يقول:

"كل ما في قهوة الجامع جميل، ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع، وأنها بالفعل في جناح من مباني الجامع.

فإذا ركب إنسان سيارة وقال: إلى الجامع، فإن السائق لا يمضي به إلا إلى القهوة، حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين، وفي هذا عار وخزي يندى له جبين الرجل الغيور. فما الذي يضر الجماعة الذين يديرون شؤون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة

بعيدة عنه، إن كان لابد لهم من قهوة عربية في باريس؟ لقد كنت أصلي في المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلاً بقول الشاعر:

ولله مـــــــــــني جانـــــــــــب لا أضـــــــــــيعه

وللـــــــهو مـــــــني والخلاعـــــــة جانـــــــب

ولكني لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التي تطغى بها القهوة على كرامة الجامع.

وبعد، فإني أرجو أن يقع خطابي من نفسك موقع القبول، وأن تبلغ تحياتي إلى صديقنا عبدالله حبيب وسائر زملائك الفضلاء والسلام"[1].

- لا ريب في أن هذه الرسالة تعكس واقعاً مؤسفاً ومُخزياً في تجاور الجامع مع هذا المقهى/ الملهى بصورة مُنفرة ومؤلمة لا تشرف أي مُسلم.

ومع إقرار الكاتب بهذا الواقع، إلا أن غيرته الدينية واضحة في استنكار ما لحق بالجامع من سمعة سيئة في مجال الطرب واللهو والعبث.

---

(١) ذكريات باريس، ٦٠ وما بعدها.

وأسلوب زكي مبارك يعتمد على الوضوح والبساطة، الطريقة المباشرة لقلب القارئ وذهنه. وكثير ما يتمثل في مقالاته ورسائله بقصة أو حادثة أو بيت شعر. وهو هنا يقر بحقيقة معروفة وواقع معاش فيما شاع عن هذه القهوة الشرقية، فإن يركب شخص ما سيارة أجرة في أطراف باريس وضواحيها ليذهب به السائق للجامع، وليس القهوة، فيذهب به السائق فوراً إلى القهوة، مما يؤثر سلباً على سمعة المسلمين بأن جوامعهم ما هي إلا هذه الملتقيات الطربية والمشروبات المنعشة والكحولية ونساء اللهو والمتعة العابرة. فما الفرق بينها إذن وبين حانات الغرب ؟

وهذا ماخشي منه الكاتب، وله كل الحق في ذلك.

وبرغم سلاسة وبساطة الأسلوب، إلا إن لغة الكاتب سليمة وقوية بمباشرتها وبأمثلتها القصصية والشعرية. ولعل زكي مبارك أفضل من يتحقق لديه أسلوب السهل الممتنع.

*****

أما رسائل توفيق الحكيم لصديقه الفرنسي أندريه، فهي بلا شك من الرسائل الأدبية اللافتة، إذ أنها تعكس ملامح صاحبها وصفاته الشخصية بدقة متناهية الوضوح.

وتكثر لدى الحكيم نبرة اليأس والتبرم لحال الفن في بلاده. وكان قد تحدث في رسالة مُطولة لأندريه عن أهمية تربية الحواس وتثقيفها؛ لتسمو الذائقة الفنية للإنسان، إذ لا تكفي العلوم العقلية لتهذيب الإنسان وتثقيفه، بل يجب أن تتجاوز مقاصد التربية تلك إلى مستويات أعلى وأرقى عبر تلمسها مواطن استشفاف الجمال.. ولا يتأتى هذا إلا من خلال محطات تثقيفية متتالية من القراءة والموسيقى والرسم، وعبر المشاهدات التأملية لأعمال العباقرة في مسرحياتهم ومعزوفاتهم، وعبر زيارة المتاحف والآثار(١)، أي بمعنى تربية الحواس الإدراكية منذ نعومة أظفار الطفل وهو لما يزل يحبو.

نراه في إحدى رسائله المؤثرة يحادث صديقه، ويقول:

"أندريه.. يجب أن تعلم أن نافذة حجرتي تشرف على ميدان "الساعة"؛ ولكي تعرف أهمية هذا الميدان يكفي أن أخبرك أنه في "طنطا" بمثابة ميدان "الكونكورد" في "باريس"، ومع ذلك، إنه ليخجلني أن أصف لك ما تقع عليه عيني، وسط هذا الميدان، لست أعني البشاعة الفنية التي تقوم عليها تلك الساعة الكبيرة، فمما لا ريب فيه أنه لم يرد في خاطر أحد أن يقيم في ذلك المكان شيئاً فنياً على الإطلاق – بشعاً كان أو غير بشع– إنما الذي أعنيه هو انعدام كل ذوق وزوال كل لياقة.. فقد أنشؤوا – وسط الخضرة المفروشة في قلب الميدان– بناءً ظاهراً، وهيكلاً بارزاً

(١) انظر : زهرة العمر ١٤٤ ، ١٤٤.

يكاد يشمخ على غيره من المباني بجلال موقعه!.. أتدري ما هذا البناء؟.. إنه ليس أثراً تاريخياً، ولا نصباً تذكارياً، ولا معبداً فنياً!.. إنه مرحـــاض عمومي!. ومع ذلك لا تنس أننا نحن الذين أهدينا إلـــيكم تلـــك المســـلة الرائعة، التي عرفتم قدرها، فاخترتم لها أرحب مكان في صدر "باريس" وهو ميدان "الكونكورد"!.. ثقَ أن لدينا من أمثال هذه المسلة عدداً كبيراً، ملقى هنا وهناك على الرمال، ولكنهم عندنا يفضلون المراحيض؛ لأنهـــا في نظرهم أنفع على الأقل وأجدى!.

آه يا أندريه!.. كل يوم تبرهن لي الظروف أني – كلما دنوت من منطقة الفن والفكر في مصر– أصاب بخيبة أمـــل!.. إن روح الجمـــال والفن لم يحلاّ بعد– أو على الأصح– لم يبعثا من جديد في أرض مصر الحديثة..

من المسؤول عن قتل روح الفن في مصر، وقد كانت هي منبـــع الفن منذ القدم"[1].

والرسالة تطلع قارئها – بعيني توفيق الحكيم المتأملة والمتحســـة للجمال والقبح فيما حوله، بـــين جماليـــات المشـــهد الباريســـي لميـــدان الكونكورد، وهو يحتضن فناً فرعونياً خالصاً، وبين ميدان الساعة الشهير الماثل أمام نافذة مكتبه؛ لتأتي المقارنة في غير مصلحة المشهد الثاني.

---

(١)المصدر السابق ١٤٠.

ونحن نعرف أن مستوى المعيشة الاقتصادية وحاسة التذوق العالي في باريس تختلف عنها في مصر، ولا ريب أن للحكيم بعض الحق في انتقاده هذا، إلا أنني أتحدث بالعموم عن شخصيته القلقة التعبة.

فالانتقاد والنقد وترصد الثغرات هو سر من أسرار تعب شخصية الحكيم الحالمة بالكمال والجمال الدائم.

وأسلوب الحكيم لا يعوزه الحذق ولا المهارة، فهو أديب بالفطرة خلق من طينة الأدب والفن، وتميزت رسائله بوحدة عضوية متكاملة، بتركيزها وتكاملها الموضوعي، واعتمد كاتبها على استدعاء المشهد الذهني: ميدان الساعة بطنطا، وميدان الكونكورد بباريس.

وبقدر ما تبعث جماليات المشهد الباريسي مشاعر السمو والرقي والتقدير للفن، يبعث مشهد ميدان الساعة أمامه مشاعر التأفف والأسف.

والرسالة تنم عن روح غريبة مغتربة لكاتبها، فهو يعيش في وطنه، بينما تحلق روحه في ميدان باريس ومسارحها، تتـــنسم الفن الخالص.